الحرف اللاتيني والعربية

للأستاذ محمود محمد شاكر

ربَّ رجلٍ واسع العلم ، بحرٍ لا يزاحم ، وهو على ذلك قصير العقل مضلَّل الغاية ، وإنما يعرض له ذلك من قِبَل جُرْأته على ما ليس له فيه خبرة ، ثم تهوُّره من غير روية ولا تدبر ، ثم إصرارُه إصرار الكبرياء التي تأبى أن تعقل . وإن أحدنا ليقدمُ على ما يُحسِن ، وعلى الذي يعلم أنه به مضطلع ، ثم يرى بعد التدبر أنه أسقط من حسابه أشياء ، كان العقل يوجبُ عليه فيها أن يتثبت ، فإذا هو يعود إلى ما أقدمَ عليه فينقضه نقض الغَزْل .

ومن آفة العلم في فن من فنونه ، أن يحملَ صاحبه على أن ينظر إلى رأيه نظرة المعجب المتنزِّه ، ثم لا يلبثُ أن يفسده طول التمادي في إعجابه بما يحسنُ من العلم ، حتى يقذفه إلى اجتلاب الرأي فيما لا يُحسِن ، ثم لا تزال تغريه عادة الإعجاب بنفسه حتى ينزل ما لا يحسن منزلة ما يحسن ، ثم يُصرّ ثم يغالي ثم يعنُفُ ثم يستكبر . . . ثم إذا هو عند الناس قصيرُ الرأي والعقل على فضله وعلمه .

فمن ذلك أني قرأت في عدد مجلة « المصور » ١٠١٥ بتاريخ ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٣ حديثاً لصاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا عن « الإسلام والحروف العربية » فرأيته يفتتح حديثه بهذه الكلمة ، إذ يقول لسائله :

« إني لا أعنّي نفسي ألبتة بالاطلاع على ما قد يقال من هذا الهراء الذي هو أهونُ عليّ من الغبار الذي يمسُّ ردائي وحذائي ، فما بالك أنت تهتم بما لا أكترث له ؟ »

وعبد العزيز فهمي رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقه وطول الباع في القانون ، وكنا نظنه رجلاً محكم العقل من جميع نواحيه ، لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ، ولا يرمي بنفسه في غمرات الرأي إلا على بصيرة وهدى . فلما قال ما قال عن الحروف العربية في المجمع ، ونشرت الصحف قوله ورأيه ، قلنا : عسى أن يستفيق الرجل ويعودَ إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنطق ، وأن يكون ما قال خالصاً لخدمة العربية ، فإن يكن في رأيه شيء من الصواب فسيحقق الجدل الذي يدور بينه وبين الناس فضيلة رأيه على الآراء ، وإن يكن أخطأ فهو خليق أن يرجع إلى صواب الناس غير معاند ولا لجوج

كان هذا ظننا فيه ، فلما قرأت فاتحة حديثه التي رويتها قبل ، علمتُ أن الرجل لن يستفيق ، ولن يعودَ ، ولن يعقلَ ما يقول الناس — وما ظنك برجل من رجال القضاء — رجلٍ مارس العقلَ والفهم وتقليب الرأي ، والتثبت من الحجج المتضاربة الموهمة ، والحرصَ على أدق الصغائر لا تخدَعُه عن عدله وإنصافه ؟ ما ظنك برجل هذه صفته يزعم أنه لا يطّلع ، بل لا يعنّي نفسه بأن يطلع على آراء خصمه ! ثم ما ذا ؟ ثم ترى هذا القاضي العادل ، بعد أن شهد على نفسه وأقر أنه « لا يعنّي نفسه ألبتة بالاطلاع على ما قد يقال » ، يصف هذا الذي لم يطلع عليه ولم يقرأه ولم يتعب فيه ، بأنه « هراء » ! ؟ فمن أين عَلِم ؟ وكيف حكم على شيء لم يقرأه ؟ ثم يزيد فيقول إن هذا الهراء الذي لم يقرأه ، أهون عليه من الغبار الذي يمس رداءه وحذاءه ! ثم يبالغ فيعنف سائله ويتعجب له ويسخر منه ، ويقول له : ما بالك أنت تهتم بما لا أكترث له ؟

وهذا التسلسل العجيب الذي كنا لا نظنه مما ترضى عنه بصيرة رجل مفكر ، فضلاً عن قاض حريص ، فضلاً عن رأس من رءوس القانون ، فضلاً عن نابغة من نوابغ مصر ، قد كان ، ورضي عنه عبد العزيز فهمي باشا ، وجعله حجته ومنطقه في حومة الرأي والجدال . ولعلَّ الغضبَ هو الذي احتمله حتى أضلّه عن مواطىء حجته ، ثم تركه يتقلّبُ في كلامه ، حتى اقترف من اللفظ والنطق ما لا يليق به

ونحن سنرضى أن نكونَ في الغبار الذي يمسُّ رداء الباشا ، وفي الغبار الذي يمس حذاءه ! ونسأل الله أن يجعله بركة للناس وخيراً ، وأن يسبغ عليه من نعمه ما هو له أهل ، وأن يسدد خطاه حيث ذهب ، فحيثما اهتدى الباشا كنا من الغبار الذي يهتدي بهدى حذائه ! وسواء علينا بعد ذلك أقرأ هذا الهراء أم لم يقرأه !

نحن نسلم للأستاذ الجليل بما يقول عن صعوبة الحرف العربي المكتوب ، وبأنه يعوق القراءة ، وأنه يجعل العربية أبعد متناولاً عن عامة الناس ، نسلم له بهذا ، ثم ننظر كيف يكون الرأي الذي اعتسفه مظنة للتسهيل ، ومدعاة لنشر العربية !

وكيف يكون هو الذى يخرج الحرف العربى الغامض إلى البيان والوضوح ، فلا يكون مضللاً ولا معوقاً ، فإنه زعم أن : « ليس لدى المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربيـة وقت فائض يصرفونه فى حل الطلاسم » ! هذا هو محصول رأيه

فما هذا التضليل الذى زعم ؟ لقد قال من قبل إن الذى دفعه إلى هذا الرأى هو تيسير الكتابة العربية ، « لأن حروف هذه اللغة ليس بينها حروف حركات ! وكثيراً ما يحدث فيها التصحيف والتحريف لهذا النقص . فهما تعلمها الإنسان فلا بد أن يخطىء فى قراءتها ، وقد عالج الأقدمون هذا الشكل الكبير بوضع الشكل ، ولكن هـذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف »

ودليل الاضطراب لم يزل يظهر فى هـذا المنطق كما ظهر فى حديث محرر المصور ، وهو سؤال وجواب لا عنت فيهما ، فأول الوهن وأول الفساد فى هذا المنطق أننا رأيناه فى اقتراحه قد أبقى الحروف المعجمة (المنقوطة) ، وقصر ما ادعاه من التضليل والعسر على (حروف الحركات) . وهذا عجب . فالإعجام (النقط) هو فى التصحيف والتحريف بمنزلة الشكل أو أقل منه قليلاً ، فكان لزاماً عليه أن يبحث مسألة الحروف المعجمة ، ويخلص العربية منها ليدر أعنها التصحيف والتحريف ! ولكنه لم يفعل ، ولم ؟ لا ندرى !

ومع ذلك ، فلنفرض أننا أدخلنا ما سماه (حروف الحركات) فى كلام عربى مكتوب باللاتينية ، ثم لنفرض بعد ذلك أنه قد أجدى ونفى التضليل من هذا الوجه . ولكن يبقى أن ننظر : أينتفى التضليل البتة ، أم هناك نوع آخر من التضليل يجره هذا العمل ؟ وأى التضليلين أهون شأناً ؟ فإذا تساويا بطلت الحجة المرجحة ، وإذا غلب أحدهما كان الانصراف إلى أخفهما ضرراً هو الوجه الذى لا معدل عنه . أليس هذا هو منطق الناس يا صاحب الحروف اللاتينية ، أم تراه ينبغى أن نسير على هدى منطقك ؟!

نخذ إليك مادة من العربية مثل « قام » ، ثم اجعلها فعلاً ، ماضياً ومضارعاً وأمراً ، وألحق به ما يلحقه من الضمائر ، وأدخل عليـه ما يدخله من قبل أوله وآخره مثل « فليقمهنّ » وفى التثنية والجمع ، والخطاب والغيبة ، ثم أخرج جميع مشتقاته من الأسماء ، وألحق بها ما يلحقها ، وضمها فى حالة الإضافة إلى الاسم الظاهر والضمائر ، فى التثنية والجمع أيضاً ، ثم اجمع الأسماء على اختلاف صور الجموع الممكنة فيها ، ثم افعل ذلك بالمادة حين يزاد فيها ما يزاد مثل « أقام وقوّم واستقام » ، وصرّفها فى الوجوه التى ذكرناها ، وتبين حركات الإعراب فى سياق الكلام ، وضع كل ذلك أمامك مكتوباً بالحرف العربى ، ثم بالحرف اللاتينى ذى الحركات التى تجعل الكلمة مرسومة كمنطوقة . ثم انظر إليهما ، فهل تستطيع ، غير مماندولا لجوج ، أن تميز بين كلة وكلة ، وأن تتبين الشبه بين هذه المتقاربات من مادة واحدة فى اللغة ؟ ونحن قد جربنا على أسلوب صاحب اللاتينية ، فجربنا ذلك بأنفسنا فما اهتدينا ولا أدركنا ، وصارت الكلمة الواحدة التى لا تخطئهـا العين فى العربية ، ولا تخطىء الشبه بينها وبين صواحباتها ، كلمات لا يُدرَى ما هى ! وهذا شىء قائم على الحس والتجربة والعيان[1]

فإذا عرف ، من لا يستكبر عناداً ولجاجاً ، أن ذلك مما يُضِلّ ويعمى ، نظر فإذا هو يرى أن أول التضليل فى رسم العربية باللاتينية ، أن يضيع على القارئ تبيّن اشتقاق اللفظ الذى يقرؤه ، فإذا عَسُر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذى لا نسب له ، وصار فرضاً عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة فى جميع صُوَرها التى تكون فى السياق العربى ، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ، ثم عليه أن يحفظ معانى ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه فى المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها ؟ يومئذ تصبح العربية أجهَدُ لطالبها من اللغة الصينية . نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف ، فقد ضل عن العربية كلها ، لأنها لم تُبْنَ إلا عليهما . وهى من هذا الوجه مخالفة لجميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، لأن الاشتقاق والتصريف يفرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها ، حتى تختلف الحركات على كل حرف فى كل بناء مشتقّ أو مصرَّف ، ثم يزيد على ذلك ما يدخل على الكلمة من جميع ضروب الحروف العاملة وغير العاملة ، ثم عِلل الإعراب والبناء والحذف ... إلى آخر ما يعرفه كل مبتدئ فى العربية

فإذا كان هذا هكذا ، وكان التضليل كائناً فيه ، وكان هذا

(١) لقد تجشمنا أن نرسم الكلام العربى فى هذه المادة ، ووجوه التصريف واللواحق ، لأنها يسيرة على القارىء فهو يستطيع أن يستخرجها جميعاً ويرسمها لنفسه وينظر أى مخرقة يرى !

التضليل واقعاً فى أصول الاشتقاق والتصريف ، الذى يردّ القارئ إلى أصل المادة اللغوية . وإذا كان الضلال عن أصل المادة ضلالاً عن معناها ، فأى السبيلين أغمض وأضل : سبيل عُسْر القراءة لعدم (حروف الحركات) ، أم سبيل امتناع الفهم لامتناع الاهتداء إلى أصل الاشتقاق ؟ ونحن لا نشك فى أن كل رجل ذى بصيرة حسن المنطق ، سيجد فى هذا وحده من المشقة والعسر ، ما لا يدع اختياراً فى الاعتراف بالضلال المطبق الذى تجلبه الكتابة بالحرف اللاتينى ، وأن التصحيف والتحريف الذى يدخل الحرف العربى أهون بكثير من الاختلال والفساد والمضلة والعبث التى يجرها الحرف اللاتينى

وإذن فغاية المشروع الذى انتحله ، أن ييسّر نطق الكلمة المكتوبة فى حال إفرادها ، غير ناظر إلى سهولة الاهتداء إلى الاشتقاق الذى هو أصل العربية ، وأراد أن يأمن الخطأ فى الإعراب ، والتحريف فى ضبط الكلمة ، فنسى كل شىء ، ولم ينظر ماذا يجلب مشروعه من التضليل والتشويه والتعسير والاستحالة ، والغموض الأعمى الذى لا يهدى إلى شىء فى هذه اللغة العربية ! وهذا وحده عجب أى عجب

هذه واحدة ، ثم زعم الباشا أن الحروف العربية تعوق القراءة ، فيهما تعلمها الإنسان فلا بد أن يخطىء ! وأن هذا الشكل قد عالجه الأقدمون بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف !

هما علتان ، ثم علتان ملفقتان قد غلغل فيهما البطلان ، وخبرتهما المغالطة فى الصميم وفى المنطق . ونحن لن نناقش اليوم هاتين العلتين إلا من وجه واحد يظهر به فسادهما ، أما سائر الوجوه فندعها حتى يحين وقتها ومكانها من الكلام . فالخطأ عندنا لا يعود إلى صعوبة الحرف المكتوب ، وإنما يعود إلى القارىء المخطىء نفسه ، وهذا هو وضع القضية عندنا : إذا كان المتكلم حين يتكلم يستطيع أن يسوق كلامه على العربية الصحيحة غير مخطىء ، فمحال أن يخطىء فيها عند القراءة مهما اختلف الخط عليه سهولة وصعوبة ، لأن النطق سابق للقراءة ، فالذى لا يخطىء وهو يتكلم (أى كأنه يقرأ من حرف غير مكتوب) ، لا يتأتى له أن يخطىء وهو يقرأ حرفاً مكتوباً ظاهراً مميزاً ببعض الدلالات . وإذا عولج بعض العسر بوضع الشكل على الحروف ، فالخطأ عندئذ أشد استحالة لوجود دلالات صريحة لا تقل فى إفصاحها وبيانها عن حروف الحركات التى أرادها صاحب هذا المشروع اللاتينى ، ومن ثم فهى ليست مجلبة لزيادة التصحيف والتحريف كما زعم . أما قوله ، فى خلال ذلك ، إن الشكل قد أفلس ، فهذا حكم باطل فى قضية باطلة بطبيعتها ، وما دامت القضية فى أصلها لا تصح على الوضع الذى لفقه ، فالحكم نفسه لم يدخل إلا زيادة فى التلفيق . لقد نسى صاحب الحروف اللاتينية أن الإعراب فى العربية شىء يختلف اختلافاً كبيراً عن سائر اللغات المكتوبة بالحروف اللاتينية ، وأن الخطأ فيه لن يكون من قبل الكتابة سهلة أو صعبة ، بل هو راجع إلى المتكلم أو القارئ من قبل الضعف والقوة والعلم والجهل ليس غير

وأما ثالثة الأثافى ، كما يقولون ، فهو زعمه أن « ليس لدى المسلمين ، وغيرهم من أهل البلاد العربية ، وقت فائض يصرفونه فى حل الطلاسم » ! فأى طلاسم ؟ أهى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف فى المادة الواحدة ، ألواناً من الحركات تكتب بين كل حرف وحرف ، وفى أواخر كل كلمة ، وتقف تواصل متباينات بين حروف مادة واحدة من لغة بنيت على الاشتقاق وعلى الاختصار ، وجاء فيها الجموع المختلفة ، والصفات والأبنية ذوات المعانى ، والبناء للمجهول ، وأحكامُ المعتلّ فى التصريف ، واختلاف المصادر وأسماء الزمان والآلات ، والترخيم والنسبة ، والإضافة والتقاء الساكنين ، وأحكام الإعلال والإبدال والإدغام ، إلى آخر هذا كله ، مما يغيّر الأبنية والأطراف والأوساط ، هذا إلى كثير من أحكام النحو الأخرى التى تفزع من يتتبعها إذا هو أراد جدال صاحب الحرف اللاتينى ! أهذه هى الطلاسم أم تلك ؟ وأيهما أفسد لوقت المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أضرى وأشنع فتكاً وشراسة ؟ بل أيهما الذى يغول العقل لا الوقت وحده !

ولكنها فتنة ! فتنة اغتر بها شيخ صالح ، فاستغلها من لا يرى للعربية حقاً ولا حُرْمة ، ولولا بعض حسن الظن لقلنا :

لا تأمنوا قوماً شَبَّ صبيُّهم ... بين القوابل بالعداوة يُنشَعُ
فضلت عداوتهم أحلامهم ... وأبت ضباب صدورهم لا تنزع
إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفى غليل صدورهم أن تُصرعوا

وأى مصرع ياصاحب المعالى ! علمك الله الخير وهداك إليه وسددك وحفظك .

محمود محمد شاكر